النقد والمثال

الجمال الذاتي في بعض المعاني البسيطة

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في الفصل السابق عن نوعي المعنى الأصليّ والشعريّ ؛ وقلت في المعنى الأول : إنه أول ما يخطر على الخاطر ، وتتحدث به نفس الشاعر ، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً ، وليس من الشعر في قليل ولا كثير ، وبينت المعنى الثاني الذي تصرفت فيه الملكة الفنية بإضافة شيء من المحسّنات الشعرية اليه ، وقلت : إنه هو الذي يمدّ من مقومات الشعر وعناصره ، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر المتقدمين والمحدثين

وأقول في هذا الفصل :

إن بعض هذه المعاني الأصلية التي لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحسن فيها أصلياً ، والجمال فيها من ذاتها ، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً ، ولا تتكلف فيها تحسيناً ولا تجميلا ، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها ، ويشوه من جمالها ، ويحجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها ، ومباشرة الاحساسات بتأثيرها ؛ فهي أشبه بغانيات أبي الطيب اللاتي استغنين بما فيهن من جمال مطبوع ، عما يُكسبهن الافتنان في الزينة من جمال مصنوع إذ يقول :

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية ... وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

أقدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها ... مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلة ... أردافهن ثقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست عموهة ... تركتُ لون مشيبي غير مخضوب

وليس على الشاعر في أمثال هذه المعاني إلا ما يتعلق بالصياغة البيانية ، من عذوبة العبارة ، ورقة النسج ، وشرف الألفاظ ، واختيار الأسلوب الملائم لغرض الشاعر ، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والعبارات ، دون المعاني والأغراض ، وإنما يكون هذا الجمال الطبيّ في المعاني البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية في النفس ، وتحدرت عن ينبوع صافٍ من الحسّ ، وكانت صُوَراً دقيقة للشعور الصادق في القلب الخلق ، فهنالك لا يعد الشاعر إلا لساناً ناطقاً ، لا مبتدعاً خالقاً

وترى هذه المعاني الجميلة بطبيعتها مستفيضةً شائعةً في شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين إلى أواسط العصر الأمويّ ، وإنما استفاضت هذه البساطة في شعر الأمويين لقرب عهدهم بعيش البساطة في البادية ، ومشافهة الطبيعة في صحراء الجزيرة ، فهم رغم تفرقهم في الممالك التي فتحوها وانتشارهم في الأمصار التي مصّروها ، ومفارقة الفطرة في بواديهم ، لم يزل صوتها يناديهم ، فيجيبونها في أشعارهم بالبساطة في معانيهم وأفكارهم

وإنك لتستجلي ذلك في شعر النسيب وما هو بسبيله ، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من حَزَن وآلام وذِكر الشباب الزائل ، وما كان فيه من لهو وباطل ، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذي يُقذى العيون ، ويذهب باللهو والفتون ، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرؤه أوائل قصائدهم في صفة الديار والأطلال ، وما فعلت بها الرياح والأمطار ، وما بقي فيها بعد من رحلوا عنها ، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التي تتصل بها أو تقرب منها

وترى ذلك أيضاً في شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إسار فيعزّي نفسه عن تقييد ساقيه بإطلاق فكره في تذكر أيامه الذاهبة ، ولذاته الفائتة ؛ وذِكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان ، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من الندامى والصحاب ، وإقدامه في القتال ، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ في الافتخار بقومه وعشيرته ولومهم على تركه لأعدائه ، وبطئهم عن فدائه ؛ كلُّ ذلك في حسرة وألم يفريان الضلوع ، ويستنزفان الدموع

وأنا أعرض عليك في هذا الفصل أمثلةً يسيرة لما ذكرت مما اختزنته من حفظي

أما جمال هذه البساطة في النسيب ، فكقول المجنون « وهو

من أصوات الأغانى »

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إننى لكِ عاشقُ
لقد صدق الواشون أنت حبيبةٌ
إلىّ وإن لم تَصْفُ منكِ الخلائق

ووجه الجمال فى هذا الشعر مخالفةُ الشاعر غيرَه من المحبّين باحتقاره الوشاة ، وعدم استحقاقهم لتكلّف المصانعة والمداراة وهو بذلك يصف حبَّه بالنقاء من الريبة ، وأنه أسمى من أن يستره بحيلة ، وأشرفُ من أن يُعمِل فى إخفائه الوسيلة

ثم انظر إلى سحر هذه البساطة فى ضد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياع من مقالهم ؛ وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلّة الرسل إليها ، وأن الحيل قد أعوزته فى لقائها ، ثم إشارته بعد ذلك إلى عتابه عليها ، وضراعته إليها ؛ كل ذلك فى بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التى كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصُر عنه ريشةُ الفن بما تزوِّره من أصباغها الحائلة

أريد شعر يزيد بن الطَّثرية حيث يقول :

أيا خُلّة النفس التى ليس دونها لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشتكى غربةَ النوى وخوف العدا فيه اليك سبيل
فديتك ، أعدائى كثير ، وشقتى بعيد ، وأشياعى لديك قليل
وكنت إذا ماجئت جئت بعلة فأفنيت علاتى فكيف أقول
فما كلّ يوم لى بأرضك حاجةٌ ولا كلّ يوم لى اليك رسول
صحائف عندى للعتاب طويتها ستنشر يوما والعتاب طويل
فلا تحملى ذنبى وأنت ضعيفة فحمل دمى يوم الحساب ثقيل

ومثل هذه البساطة الساحرة ما تراه فى شعر عبد الله بن الدُّمَيْنة حيث يقول :

ألا لا أرى وادى المياه يثيب ولا النفس عن وادى المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وإننى لمشتهر بالواديين غريب
أحقا عباد الله أن لست واردا ولا صادراً إلا علىّ رقيب
ولا زائرا فردا ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة إلى إلفها أو أن يحن نجيب

أما جمال هذه البساطة فى معانى الحنين الى الوطن فمن أحسن ذلك قول بعض الأعراب :

أحب بلاد الله مابين منعج (١)
إلى وسلمى (٢) أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

وقول عبد الله بن نمير :

تعز بصبر لا وجدك لن ترى
عراص الحمى إحدى الليالى النوابر
كأن فؤادى من تذكره الحمى وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وقول الصمة بن عبد الله القشيرى :

قفا ودّعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربى
وما أحسن المُصطاف والتربّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدّعا

فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد فى هذا الحنين على ما يتحدث به اليك متحدث نأى عن بلده ، وفارق أهله وعشيرته ، من الحنين اليهم ، والألم لفراقهم ، وتذكر ما مضى له من عهود ، وزمن لا يعود ، وتمنيه العودةَ إلى وطنه تمنى اليائس من الأمنية ، وتأميله الرجوع الى بلده تأميل من يثق بالخيبة ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده فى الدعاء له وتوديعه إياه ، وتفديته بالنفس ؛ فلم يخترع أحدهم فى الحنين معنًى جديدا ، ولم يفكر تفكيراً بعيداً ، ولم يُغرِب فى خيال ، ولم يبالغ فى تصوير ما يشعر به من ألم الفرقة ، ووحشة الغربة ، ولم يُثقِل شعرَه بالمجازات والاستعارات ، ولا بشىء من تلك الحلى الظاهرية الزائدة على الحاجة فى هذه المعانى وأشباهها

ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبعثاً عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرته لها ، ولا نزاع فى أن إثقاله بتلك الحلى الظاهرية من الاستعارات والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس ، ويباعد بينها وبين الحس ، ويجعلها أشبه بالغناء الجميل تسمعه بواسطة (الحاكى)

(١) منعج : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج
(٢) وسلمى : أحد جبلى طيء ، والجبل الآخر أجأ

فانه لا ينال من نفسك ما يناله الغناء المشافه

وفى هذه الأمثلة التى رويتها لك فوق البساطة الساحرة فى معانيها من رقة الأسلوب الملائم لمعانى الحنين ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة الألفاظ — وهى كلُّ عمل الشاعر . فى أمثال هذه المعانى — ما يثير الشجن ويوقظ اللوعة ، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحدا متحد الاحساس ، متفق الشعور ، حتى يخيل للسامع — وهو فى وطنه بين أهله وعشيرته — أنه غريب عنهما ، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق ، فهو يشكو الغربة كما شكاها الشاعر ، ويتمنى العودة كما تمناها ؛ وقد كان بعض علماء الأدب المتقدمين ينشد أبيات الصِّمَّة بن عبد الله السابقة على تلامذته فى مسجد الكوفة ، ثم يبكى حتى تخضل لحيته ، ويقول : ما أصلب أكبادكم ! ألا تبكون عشيات الحمى ؟

وسرّ الجمال فى هذه المعانى مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الانسانية من ناحية الضعف الموجب للمواساة والرحمة ؛ ونفوذها إلى إحساس العطف المشترك بين الأسرة البشرية الباعث على المشاركة فى الألم والمحنة . أما بساطة هذه المعانى فى أشعارهم إذا بكَوا الشباب وعهده ، وذموا المشيب ووفده ؛ ووقفوا على الأطلال والديار ، فلا أريد أن أطيل عليك فى هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها ، فان ذلك مستفيض شائع فى كلامهم بل هو جُلُّ شعرهم ، وأكثرُ ما يبدأون به قصائدهم ؛ فلا تكاد تجفّ قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دمعة جارّة يذريها الأسف على شباب ذاهب والارتياع من مشيب طارق ، والوقوف على طلل ماحل ، ورسم عافٍ ، وذِكر ما قضاه الشاعر فى أفياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجناب ، من أيام عِذاب وليال قصرتها مُتَعُ الصِّبا وهو الفتوّة إلى غير ذلك

ولعلّهم جرّوا على ابتداء قصائدهم بهذه المعانى وتقديمها على الغرض المقصود بالشعر لتحريك القرائح الراكدة ، وإيقاظ الشاعرية الراقدة ، وتنبيه الأذهان التى قد تتفق ، واقتياد الأفكار التى قد تعزّب ؛ ولما كانت هذه المعانى معروفة لديهم ، معبدة طرقها لهم ، محفوظا أكثرها عندهم ، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعريتهم فى ميدانها أسهل ، كما يجرّب الجواد باجرائه شوطاً قبل الانتظام فى الحلبة ، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقعوا على الأوتار ما يقاربها من النبرات حتى يسهُل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة

أما روعة هذه المعانى فى قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر محنةٌ من سجن أو إسار ، فأما أذكر لك أمثلة منها لقلتها وانتثارها فى كتب الأدب ، وصعوبة الظفر بها فى دواوين العرب ، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمُغيرين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً ، وأصرُحهم عربيّة ؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأصمعى يقول : « إذا أتاك بيت لصٍّ فاحتفظ عليه » وذلك لاخلادهم إلى سكنى البادية ، وعدم اتصالهم بالحضر

ومن أحسن ذلك شعر عبد يغوث بن وقّاص الحارثى ، وكانت تيم قد أسرته وشدّوا لسانه ، فقال من قصيدة

ألا لاتلومانى كفى اللوم ماييا ... فما لكما فى اللوم خيرٌ ولاليا
أيا راكبا إمّا عرضت فبلّغن ... نداماى من نجرانَ ألاّ تلاقيا
أقول وقد شدّوا لسانى بنسعة (١) ...
أمعشر تيمٍ أطلِقوا عن لسانيا
أحقّا عباد الله أنلستُ سامعاً (٢) ...
نشيدَ الرِّعاء معزِبين المتاليا
وقد علمت عرسى مُلَيكة أننى ... أنا الليث معدوا علىّ وعاديا
وقد كنت نحّار الجزور ومُعمِل ال
عطىّ وأمضى حيث لاحىّ ماضيا
وآخر للشّرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين رداثيا
وكنت إذا ما الخيل شمّسها القنا ... لبيقا بتصريف القناة بنانيا
كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلى كُرّى نفّسى عن رجاليا
ولم أسبأ (٣) الزّق الرّوىّ ولم أقل
لأيسار (٤) صدق أعظِموا ضوء ناريا

وإنك لتقرأ هذا الشعر بيتا بيتا فلا ترى ملكة الشاعر قد تصرفت فى هذه المعانى البسيطة الفاتنة ببساطتها تصرفا قليلا

(١) النسعة : سير عريض من جلد ينسج على هيئة أعنة النعال
(٢) التالى من الابل : الأمهات اذا تلاها الأولاد الواحدة مثل ومتلية . ومعنى إعزاب الرعاء لها : أنهم يبعدونها فى المرعى
(٣) أسبأ ، أى اشترى
(٤) الايسار : الذين يضربون القداح فى الميسر